الزرقاوي.. الجيل الثاني للقاعدة (3)

مشايخ «الصحوة» السعودية حرروا السلفية من ربقة الاتصال بالسلطة الرسمية.. وتحولت سلاحاً في يد «الجهاديين»

استراتيجية «القاعدة» في العراق ترمي الى تعويق ولادة سلطة محلية.. وجعل البلاد ساحة للمواجهة مع الامريكيين

فؤاد حسين*

■ الشخصية التي يتناولها هذا الكتاب فرضت أنماطا مختلفة من صنوف التصنيف، تارة أسلوب البحث العلمي المعتمد على القراءة والبحث والتمحيص والتلخيص، وقد أخذ هذا الأسلوب نصيبه في فصول هذا الكتاب، وتارة أخرى الاستماع إلى شهادات العشرات ممن عرفوا الزرقاوي أو رافقوه في مختلف محطات حياته، وهذا أخذ وقتا طويلا بين تدوين تلك الشهادات، ومن ثم تدقيقها، وتمحيصها، ومقارنة الشهادات بعضها ببعض، للوقوف على المعلومة الدقيقة لاستخدامها بعد التحقق من صحتها، وطرح المعلومة الضعيفة واستبعادها، ما لم نستطع التثبت منها، وتارة أخرى الطلب من أشخاص بعينهم أن يكتبوا بأنفسهم إجاباتهم على أسئلة طرحناها عليهم، لكن الشاق في هذا الجانب كان الوصول إلى هؤلاء الأشخاص ممن لهم بصمات واضحة، سواء في تشكيل فكر الزرقاوي أو تشكيل منهجه واستراتيجيته، وكانت هذه المرحلة الأصعب من الكتاب، إذ باتت إمكانية الاتصال مع هؤلاء صعبة للغاية، إن لم تكن شبه مستحيلة، بعد الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، فغالبيتهم إما في السجون أو مطاردون أو مختفون، لكن دون تدوين شهاداتهم، لن يكون للكتاب إضافة معتبرة، فآثرنا تأخير الكتاب شهورا عدة إلى أن وصلنا إلى مبتغانا، وضمنا الكتاب ثلاث شهادات تغطي مراحل تطور مسيرة الزرقاوي.

الشهادة الأولى كانت لأبي المنتصر بالله محمد، وهو الشخص الأول الذي بدأ الزرقاوي معه بناء التنظيم الأول الذي أسسه أبو مصعب عام 1993، وهو تنظيم التوحيد، الذي عُرف لاحقا باسم (بيعة الأمام)، مسجلا بالتواريخ والأسماء والأحداث كل ما تم حتى عام 1999. فآثرنا تلخيص هذه الشهادة دون التدخل في مضمونها، ذلك أن الكثير مما ذكره لم يعد سرا يحمل صفة الجدة، إن لم أقل أنه سبق أن نشر مضمونه بعموميته، لذلك أبقينا على المعلومات التي طرحت للمرة الأولى، وعلى الانطباع الشخصي لصاحب الشهادة وموقفه من تلك الأحداث التي دونها.

الشهادة الثانية كانت للأب الروحي للزرقاوي عصام البرقاوي (أبو محمد المقدسي) الذي التقاه في الباكستان عام 1989، واتفق معه هناك على تشكيل تنظيم ديني في الأردن، وبقي معه في السجن، بادئا معه كرفيق درب وصديق، ثم شيخه الذي ينظر لفكرة التنظيم ويضع أدبياتها، ثم كتابع له بعد أن أصبح الزرقاوي أميرا للمجموعة داخل السجن، ثم منتقدا له وناصحا عن بعد، هو في سجنه بالأردن والزرقاوي في العراق.

الشهادة الثالثة، وهي الأهم كانت للرجل الثالث في القاعدة محمد مكاوي (سيف العدل) الذي يلقي من خلال شهادته الضوء على القدوم الثاني للزرقاوي إلى أفغانستان عام 1999، وأسباب الخلاف بين الزرقاوي وبن لادن، وكيف تم إنشاء معسكر خاص للزرقاوي في هيرات، مبينا طبيعة العلاقة التي كانت قائمة في تلك الفترة بين قيادة القاعدة والزرقاوي، وصولا إلى ضربة الحادي عشر من ايلول (سبتمبر)، وأهداف القاعدة من وراء هذه الضربة، موضحا كم تحقق من تلك الأهداف، مرورا باحتلال أفغانستان والخروج إلى باكستان وإيران، كاشفا طبيعة الدور الذي لعبته طهران حينذاك، وبعد ذلك قرار إدخال الزرقاوي إلى العراق والتحضيرات التي سبقت ذلك.

وفي محاولة لاستشراف مستقبل القاعدة في العراق من خلال تطور تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين تتبع الكتاب محطات تطور عمل، وشخصية الزرقاوي، خلال السنوات الثلاث الأخيرة. معتمدين معلومات دقيقة تطلب الوصول إليها استقصاء دقيقا وحثيثا، لكل من كان على تماس مع الزرقاوي خلال تلك السنين.

وللوقوف على مستقبل الحرب المفتوحة بين القاعدة، وواشنطن التي تطلق على حربها تلك مصطلح محاربة الإرهاب الدولي، حاورنا العديد من منظري القاعدة سواء ممن ساهموا في صنع استراتيجياتها في وقت سابق أو من باتوا من صناع قراراتها لاحقا، واستمعنا إلى كل ما يجول بخاطرهم، لنرسم للقراء استراتيجية القاعدة حتى عام 2020، والوسائل التي أتبعوها، والخطط التي وضعوها للوصول إلى تحقيق هذه الاستراتيجية.

العراق الاحتلال وتفجير سفارة

فجر العشرين من آذار (مارس) 2003 بدأ الهجوم الأمريكي على العراق، وكنت قد وصلت الى بغداد لتغطية هذه الحرب قبل ذلك بثلاثة أيام، وقد رتبت أموري وفريقي التلفزيوني، على أن المعركة ستطول أشهراً عدة، وأكثر ما كان يقلق الصحافيين في بغداد استخدام أسلحة الدمار الشامل من قبل العراقيين، عندما يخسرون المعركة. هاجس الموت منها كان أكبر من هاجس الموت من القصف الأمريكي العنيف على بغداد.

السابع والثامن من نيسان (ابريل) عام 2003 كانا الأطول في أيام الحرب، فقد بات واضحا أن نظام الحكم في العراق قد انتهى، والكل بانتظار أن يستخدم ذلك النظام أخر طلقة في جعبته، لكن القوات الأمريكية دخلت بغداد في التاسع من نيسان (ابريل) عام 2003 دون مقاومة تذكر، حينها الكل أدرك أن لا وجود لأخر طلقة.. لا وجود لأسلحة دمار شامل، فقررت مغادرة بغداد مع جثامين زملائنا الصحافيين الذين قتلوا في مكتب الجزيرة وفندق فلسطين، وطوال قرابة ألف كيلو متر، وهي المسافة بين بغداد وعمان، وأنا مستغرق بالتفكير بحقيقة وجود صلة بين الزرقاوي ونظام صدام حسين، بعد أن رجحت مجريات الحرب أن لا وجود لأسلحة الدمار الشامل.

بعد دخول القوات الأمريكية بغداد، لم تقدم الادارة الأمريكية أدلة تثبت امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل. كما أنها لم تفلح في اثبات علاقة النظام العراقي السابق بالارهاب الدولي عامة، وبالقاعدة خاصة. وهما التهمتان اللتان أعلنتهما واشنطن سببا لاحتلال العراق، واسقاط نظام حكمه، علاوة على تبشيرها بنشر الديمقراطية واحترام حقوق الانسان.

حين غادرت بغداد في التاسع من نيسان (ابريل)، كان الشعور السائد أن العراق سيرزح تحت احتلال طويل دون أية مقاومة، ذلك الشعور تولد نتيجة احتلال بغداد دون قتال، علاوة على النقاشات التي كانت تدور أثناء الحرب مع بعض العراقيين من صحافيين وأكاديميين، كانت خلاصتها، أنهم يأملون أن تساعدهم الولايات المتحدة في اعادة بناء بلدهم التي أنهكها الحصار الطويل، لكن بعد شهرين من احتلال القوات الأمريكية للعراق، بدأت عمليات المقاومة العسكرية تستهدف هذا الوجود، ومرة أخرى، حملت الادارة الأمريكية الزرقاوي مسؤولية هذه العمليات.

شاهدت بأم عيني تدفق المتطوعين العرب الى العراق أثناء الحرب، لمقاتلة الأمريكيين، وزرتهم في مواقع تجمعاتهم، واستمعت الى شهاداتهم، سواء في المستشفيات بعد أصابتهم نتيجة القصف الأمريكي، أو بعد هروبهم من مناطق عراقية رفضت استقبالهم. لكن ذلك كان أثناء الحرب، ربما تكون الصورة اختلفت بعد ذلك. لكن لم يذكر أي من هؤلاء المتطوعين شيئا عن الزرقاوي حينذاك.

في الثامن من آب (أغسطس) عام 2003 تعرضت السفارة الأردنية في بغداد لعملية تفجيرية، كما تعرض مقر الأمم المتحدة في بغداد، في التاسع عشر من الشهر ذاته لعملية مماثلة، أصابع الاتهام أشارت مرة أخرى الى وقوف الزرقاوي وراء هاتين العمليتين. الا أن الزرقاوي تبنى المسؤولية عن التفجير الثاني دون الأول، وعن عمليات أخرى، وفق تسجيل صوتي له، صدر بعد ثمانية أشهر، من نسف مقر الأمم المتحدة:

فقد أكرمنا اللهُ فتقطفنا رؤوسهم، ومزّقنا أجسادهم في مواطنَ عديدة، فالأمم المتحدة في بغداد وقوات التحالف في كَربلاء، والطُّليان في الناصرية، والقواتُ الأمريكية على جسرِ الخالدية، والمخابراتُ الأمريكيةُ في فندقِ الشاهين، والقصرُ الجمهوريّ في بغداد، والسيِ آي ايه في فُندق الرشيد، والقوات البولندية في الحلة، وقد أُحيطت هذه العمليةُ المباركة، بتكتيمٍ اعلامي غيرِ مسبوقٍ في العراق وأظهرَ الاعلامُ الخبيثُ، أنّ المتضررَ منْ هذه العملية هم الابرياءُ وحدهم، ولم يذكروا أن أربعاً من الطائرات المروحية، هبطت الى الموقع لنقل الجُثثِ النجسة، منَ قوات التحالف الصليبي، وأن قتلاهم يزيد على مئتين جنديَ، أخيراً وليس آخرا الموساد الاسرائيلي في فندق جبل لبنان، وغيرُها وغيرُها في قائمة طويلة، مضتْ بعضُ فُصولها، والقادمُ أدهى وأمرُ بعونُ الله.

ونَحنُ نتحدّى الإعلامَ الأمريكي الكاذب، بأن يُبِينَ حقيقةَ الدّمار، وحجمَ الخسائرِ التي حلّت بقواته، فَرامبُو هوليوود لا مكانَ لهُ بَينَ أُسودِ الإسلامِ وأبطاله، ولنَا معهم بإذنِ الله صولاتٌ وَجَولاتٌ وإذا كَانَ جُون أبي زيد قَد نَجا هَذه المَرّةَ منْ سُيوفنا، فَنَحنُ له ولبريمر ولجنرالاتهمْ وجُنودِهم وأعوانهم بالمرصاد، نتخطفُهُم كالطير، ونقطعُ عليهم كلَّ طَريق، ونُشرِّدُ بهم من خَلفَهم.

بعد شهر من تفجير مقر الأمم المتحدة في بغداد، أعلنت وزارة المالية الأمريكية في 24 أيلول (سبتمبر) عام 2003، تجميد أموال ابو مصعب الزرقاوي، ضمن ستة أشخاص صنفتهم ارهابيين دوليين. وفي الشهر التالي أعلنت السلطات الأمريكية في العراق، تخصيص خمسة ملايين دولار، مكافأة لمن يدلي بمعلومات تؤدي الى الزرقاوي.

لم يتوقف أمر اتهام الزرقاوي بالوقوف وراء العمليات التي تقع داخل العراق، بل تعداه الى أوروبا، حين وُجهت أصابع الاتهام الى الزرقاوي مجددا، في الوقوف وراء تفجيرات استنبول، في العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) عام 2003.

في الثاني من شباط (فبراير) عام 2004 تعرضت كربلاء والكاظمية الى عمليات تفجير ضخمة، كان من الصعب توجيه الاتهام الى الزرقاوي بالوقوف ورائهما دون دليل، نظرا لأهميتها وضخامتها، فكانت الرسالة التي كشفت السلطات الأمريكية عنها، وقالت أن الزرقاوي كتبها الى قادة القاعدة، وأنها ضبطتها على قرص مدمج مع أحد أعوان أسامة بن لادن.

السلطات الأمريكية في العراق كانت قد أعلنت قبل أسبوع من ذلك، أي في الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير)، أنه تم اعتقال الباكستاني حسن جهل في العراق. وعليه تم الربط، بين هذا الاعتقال، وضبط الرسالة. لكن الجديد هنا في مضمون هذه الرسالة: أن الزرقاوي استكمل بناء شبكته الخاصة في العراق.

تلك الرسالة ذات المصدر الأمريكي، اذا ما سلمنا بصحة نسبتها الى الزرقاوي، تثير تساؤلات كبيرة، فهل تتوافق مع ما يؤمن به الزرقاوي من فكر وقناعات، والى أي حد تعكس هذه القناعات، فكر مدرسته المذهبية التي باتت تسمى السلفية الجهادية، خاصة ما يتعلق منها، بنظرتهم الى الشيعة، وفي أي خانة يضعونهم، مع المسلمين أو مع غيرهم.

بعد ثمانية أيام من تفجيرات كربلاء والكاظمية، أعلنت السلطات الأمريكية بالعراق، في الحادي عشر من ذات الشهر شباط (فبراير)، مضاعفة المكافأة المرصودة لمن يدلي بمعلومات عن الزرقاوي، وأصبحت عشرة ملايين دولار. في محاولة من السلطات الأمريكية لاضفاء الصدقية على أن الرسالة التي ضبطتها، كتبها الزرقاوي بنفسه.

لم يكتف الزرقاوي بالتوعد بمقاتلة الشيعة، بل أعلن صراحة مسؤوليته عن اغتيال محمد باقر الحكيم، رئيس المجلس الأعلى للثورة الاسلامية في العراق، في الانفجار الذي استهدفه بالنجف في التاسع والعشرين من آب (أغسطس) عام 2003. وقد كلف الزرقاوي والد زوجته الثانية، الشيخ ياسين، لتنفيذ عملية اغتيال محمد باقر الحكيم.

اذا ما تفحصنا طبيعة تفجيرات كربلاء والكاظمية، نرى انها استهدفت الشيعة، في مناسبة هي الأعظم دينيا لديهم، فهل باتت مقاتلة الشيعة، أولوية لدى الزرقاوي، على مقاتلة الأمريكان، في ظل التحالفات الناشئة، بعد تصاعد المقاومة للوجود الأمريكي في العراق، في المناطق التي أصطلح على تسميتها بالمثلث السني؟ مواقف الزرقاوي المتشددة لم تقتصر على الشيعة وحدهم، بل شملت مسلمين سنة أيضا، عربا وأكرادا، معتبرا أن التخوف من حرب طائفية، ما هي الا دعوات للسكوت على الاحتلال.

البيان الذي نفى فيه تنظيم القاعدة مسؤوليته عن تفجيرات كربلاء والكاظمية. يؤكد ما جاء في ذيل رسالة الزرقاوي، التي ضبطتها الأجهزة الأمريكية في العراق، من أنه ليس جزءا من تنظيم القاعدة، وأن لكل منهما موقفه الخاص تجاه التعامل مع الشيعة في العراق، رغم اتفاقهما العقائدي على الموقف منهم.

شهد النصف الأول من عام 2004، نقلة نوعية في عمل الزرقاوي وشبكته المسماة التوحيد والجهاد، فبعد الاعلان عن ولادة الشبكة عبر البيان العسكري رقم واحد، الخاص بالهجوم البحري على ميناء البصرة، والذي حمل توقيع الزرقاوي شخصيا، توالى صدور البيانات العسكرية، لكن بتوقيع الجناح العسكري، وأصبح لديهم مكتبا اعلاميا خاصا بشبكة التوحيد والجهاد، مما يوحي أن شبكة الزرقاوي، باتت تعتمد العمل المؤسسي المنظم. وامعانا من الزرقاوي في تأكيد حضوره القوي بالعراق، وتقديم الدليل المادي أنه وراء التفجيرات الكبيرة التي حدثت في العراق، والتي أعلن مسؤوليته عنها في بيانات خطية، وأنه وراء عمليات اغتيال كبار المسؤولين من أعضاء مجلس الحكم الانتقالي في العراق وغيرهم، وزع الزرقاوي شريطا مصورا عبر شبكة الانترنت يظهره وهو يقوم شخصيا بقطع رأس المواطن الأمريكي نيكولاس بيرغ، بعد أن تلا بيانا بصوته، يبرر فيه هذا التصرف بأنه انتقام لما جرى من انتهاكات بحق السجناء في معتقل أبو غريب وغيره، متوعدا بالمزيد، وبذات الأسلوب الذي كرره مع المختطف الكوري.

البيان الذي أصدره الزرقاوي متبنيا مسؤولية الهجوم البحري على ميناء البصرة جنوب العراق، في الخامس والعشرين من نيسان (ابريل) عام 2004، يؤكد بشكل قاطع، أنه لم تعد هناك أية صلة للزرقاوي بتنظيم القاعدة، فقد وقع البيان باسم أبو مصعب الزرقاوي «أمير جماعة التوحيد والجهاد»، مما يعني أنه قرر الاعلان عن شبكته الخاصة التي بدأ في انشائها، حين أسس معسكره الخاص في هيرات. حمل بيان البصرة الرقم واحد، مما يعني أن الزرقاوي وصل الى طريق مسدود مع قادة القاعدة، في أن يوافقوه على رأيه الخاص بالموقف من الشيعة، ذلك الموقف الذي ضمنه الرسالة التي ضبطتها السلطات الأمريكية في العراق، شرطا للعمل بامرتهم، وفي اشارة البيان الى أن عملية البصرة «جاءت تأسيا بما فعله اخوانهم ليوث القاعدة بالمدمرة كول»، هي تأكيد علني صريح مباشر، أنه لا يتبع للقاعدة، وأنه قادر أن يفعل مثلهم وأكثر.

هذا الوضع يعني أن شبكتي الزرقاوي وبن لادن ستتنافسان في ايقاع الضربات الأكثر ايلاما في خصمهما المشترك، ليثبت كل منهما، أنه الأجدر في أن يُقدم له الجميع الولاء والطاعة. ليكون رمزا لكل الجماعات الاسلامية المسلحة في العالم، التي تنتمي الى ما أصطلح على تسميته بالسلفية الجهادية.

التغطية الاعلامية الامريكية للزرقاوي

لكن أسلوب ادارة الولايات المتحدة للأمور في العراق، أدى الى سكب زيت بن لادن على نار الزرقاوي، ليزيد اشتعال العراق عليهم لهيبا، فالتغطية الاعلامية الهائلة الذي حظيت بها أنشطة الزرقاوي في العراق، والتضخيم الاعلامي الأمريكي المقصود للزرقاوي في العراق، بهدف تعليق جميع العمليات العسكرية والمقاومة المشتعلة بالعراق، على شماعة الزرقاوي، للايحاء بأن العراقيين قابلون بتواجد القوات الأجنبية على أراضيهم، وأن قلة من المقاتلين العرب، هم الذين يفتعلون تلك الأحداث بالعراق، لتأكيد وجود ارهابيين في العراق، قبيل الغزو الأمريكي له. خدم الزرقاوي كثيرا، دون أن تقصد أو تعي واشنطن ذلك، فهذا التضخيم أسهم في خلق صورة البطل في أذهان العرب الباحثين عن قائد يتوجهون اليه، ليخوضوا معه جهادهم التواقين اليه، فبات كل عربي ومسلم راغب في الذهاب للجهاد في العراق، يتوجهون الى الزرقاوي للانضواء تحت قيادته. فالذهنية في المشرق اعتادت أن تخلق بطلا ان لم يكن موجودا، تصنع منه رمزا لتتحلق حوله في صنع التاريخ. الذهنية الأمريكية الهوليوودية، تلتقي مع ذهنية المشرق في ذلك، فخلقت من الزرقاوي بطلا ورمزا، مع أنه في تلك الأثناء لم يكن قد فعل الكثير ليشار اليه بالبنان. وكان مجموع من يأتمرون بالزرقاوي حينذاك لا يتعدون ثلاثين شخصا. لكن بفضل (العبقرية) الاعلامية الأمريكية، بات عدد أتباع الزرقاوي الآن يعدون بالآلاف.

كذلك أدى اعلان السلطات الأمريكية وضع يدها على رسالة، قالت أن الزرقاوي كتبها لقادة القاعدة، ونشرت نصها الكامل، الى منح فرصة لقيادة القاعدة وكوادرها للعمل على توحيد الصفوف مع الزرقاوي، لأن نص الرسالة يؤكد أن لدى الزرقاوي الاستعداد ليكون جزءا من تنظيم القاعدة، وفق رؤية طرحها، فسارع المقاتلون العرب والمسلمون ممن يدينون بالولاء لفكر القاعدة، الى الالتحاق بشبكة الزرقاوي، حتى قبل أن تتم عملية التوحد، كما بادر الأثرياء من العرب والمسلمين، بعد نشر تلك الرسالة، الى السعي لايصال أموالهم الى الزرقاوي، مما قوى من شبكته بشريا وماليا في العراق. أما أسامة بن لادن، فقد تلقف ذلك أيضا، وبادر الى الاتصال بالزرقاوي لتتم عملية انضواء تنظيمه تحت راية القاعدة، والتي بات الزرقاوي أميرها في العراق. حتى أصبحت القاعدة الآن، اللاعب الرئيسي في الساحة العراقية.

توحد الزرقاوي مع القاعدة على الصعيد التكتيكي والاستراتيجي، يخدم الطرفين، بن لادن والزرقاوي. أما لبن لادن فهو الفرصة التاريخية ليضع اصبعه في عيون واشنطن ليقول لها أن اجتياح أفغانستان لم ينه القاعدة، على قاعدة أن الطلقة التي لا تقتلني تقويني، وأن العراق باتت ساحة أكثر أهمية للقاعدة، فطبيعة الأرض والمناخ توفر حاضنة أكثر ملائمة للقاعدة من أفغانستان. أما بالنسبة للزرقاوي، فالمخزون البشري الذي يمده بالمقاتلين، غالبيتهم متطوعون قصدوا العراق للوصول الى الزرقاوي حبا بالجهاد، وتدفق هذا المخزون مرتبط ارتباطا طرديا مع القبضة الأمنية على الحدود، بينما اتحاده مع القاعدة يؤمن له تواصل هذا التدفق البشري بشكل دائم ومنظم.

وما ينطبق على العامل البشري ينطبق على العامل المادي واللوجستي.

استراتيجية الزرقاوي السياسية في العراق، أصبحت أكثر وضوحا بعد كلمته التي هدد فيها أياد علاوي رئيس الحكومة المؤقتة في العراق بالقتل، هذه الاستراتيجية باتت تركز على استهداف الشرطة العراقية، وهو انعكاس لموقفه الثابت من الشرطة مذ كان سجينا في الأردن، وقتله للرهينة الكوري، يوضح حدود استراتيجيته العسكرية، الاستفراد بالأمريكيين وحدهم بعد أن يدفع الآخرين الى مغادرة العراق، مكررا ما قام به تجاه الأمم المتحدة، ليصل في النهاية الى عرقلة الخطط الأمريكية في ايجاد واجهة عراقية محلية لادارة أمور البلاد، لتبقى الحرب مفتوحة بين قوات احتلال أميركية، ومجاهدين يقاتلون لاخراج القوات الصليبية من أرض المسلمين، مما يبقي تجربة الجهاد في أفغانستان حية، لكن هذه المرة بأنماط متطورة تتيح لكرة الثلج الجهادية أن تكبر ليصل تدحرجها الى دول الجوار العراقي، وصولا الى القضية الأكثر قدسية واشتعالا في رؤوس المسلمين؛ قضية فلسطين.

أفكار الزرقاوي وعقيدته

أولا: مدرسته المذهبية

بعد أحداث الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، أصبح الغرب أكثر اهتماما بالاسلام، لكن دون أن يعرف الفرق بين المذاهب والفرق الاسلامية، وصب جل اهتماماته على السلفية، أو ما يسمونه بـ(الوهابية)، لوجود خمسة عشر سعودياً متهماً بالاشتراك في الهجمات على نيويورك وواشنطن.

والوهابية تطلق مجازا على المدرسة السلفية وذلك نسبة الى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الذي تُصنف أفكاره على أنها دعوة سلفية. وهو المنهج الديني الذي يسيطر على التوجه الديني في السعودية.

نشأة المدرسة السلفية

لم تكن السلفية وليدة الأحداث الراهنة، ولا الفهم المعاصر للاسلام وانما تمتد ـ حسب ما يرى بعض الباحثين ـ الى شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية. ترتكز الدعوة الوهابية على مبادئ أساسية، أهمها الرجوع الى الكتاب والسنة في كل شأن من شؤون الحياة، واتباع سبيل السلف الصالح، ونبذ الفلاسفة والمتكلمين ورجال التصوف، لكونهم يتعارضون وروح الدعوة الاسلامية. بينما يرى الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه تاريخ المذاهب الاسلامية في السياسة والعقائد، أن نسبة السلفية ترجع الى الامام أحمد بن حنبل، بظهور جماعة في القرن العاشر الميلادي، وكانوا من الحنابلة، ويقولون بنسبة آرائهم الى الامام أحمد الذي أحيا عقيدة السلف وناهض ما دونها، ثم تجدد ظهورهم في القرن الخامس عشر، حيث أحياه شيخ الاسلام ابن تيمية، ثم ظهرت تلك الآراء في شبه الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر ،بانشاء المدرسة الاصلاحية السلفية، التي انتشرت في العالم الاسلامي على يد محمد بن عبد الوهاب. الذي عاش في القرن الثامن عشر الميلادي في الجزيرة العربية، ركز جهوده في محاربة البدع التي تنحرف بعقيدة التوحيد الاسلامية، وتنسب الى غير الله، ما لا يجوز أن ينسب اليه، من أمور تحمل سمات الشرك بالله، مثل زيارة القبور والأضرحة، للتبرك والتوسل بمن دفن فيها.. الخ.

كان لانتصار الحركة الوهابية المسلحة وسيطرتها على مكة والمدينة وهما المدينتان المقدستان اللتان يحج اليهما ملايين المسلمين كل سنة أثره الفعال والمهم في انتشار الفكر الوهابي خارج الجزيرة العربية.

وعليه فقد غدا موسم الحج السنوي الفرصة الأكثر حيوية لدعاة الوهابية، لنشر مذهبهم في التوحيد ومحاربة البدع.

فالى جانب الخطب المنبرية والجلسات التفقيهية والوعظية المنظمة بمناسبة الحج، اهتم القائمون على الدعوة الوهابية، بنشر كتب الشيخين ابن عبد الوهاب وابن تيمية. بالاضافة الى عدد كبير من الكراسات والمحاضرات التي تشرح أصول المذهب الوهابي التوحيدي الجديد، وتوزيعها مجانا على الحجاج.

كما أن التصرفات الغريبة التي كانت تصدر من بعض دعاة الوهابية أو القائمين على رعاية الأماكن المقدسة، كانت تثير ردود فعل مختلفة من قبل الحجاج، وخاصة عندما كان الوهابيون يمنعونهم من الاقتراب من ضريح الرسول (ص)، بحجة أن ذلك «شرك»، وان من تمسح بالقبر أو وضع يده على الشباك المحيط بالقبر الشريف، فقد أشرك. وينادون على من يفعل ذلك يا مشرك. كل هذه التصرفات كانت تثير لدى الحجاج تساؤلات عدة، تدفع المتعلمين منهم للسؤال والبحث. وقد تعرف الكثير منهم على العقائد الوهابية من جراء ذلك.

أما انتشار الوهابية في دول العالم الاسلامي، فيعزى الى طائفة من العلماء والفقهاء زاروا مكة والمدينة للحج، فتعرفوا على عقائد الوهابية والتقوا معها، في مسألة محاربة البدع والخرافات العقائدية التي كانت منتشرة، ومن ثم شكلوا النواة الأولى للدعوة الوهابية في بلدانهم، لما رجعوا من حجهم. بالاضافة الى مجموعة كبيرة من الطلبة الذين استوعبتهم الجامعات الدينية الوهابية، المؤسسة لتعليم المذهب الحنبلي وعقائده.

ولقد كانوا فعلا رسل المذهب وسفراءه في بلدانهم، ومن ثم بدأت أفكار الشيخين ابن تيمية وابن عبد الوهاب تعرف طريقها نحو العالمية.

علاوة على ما سبق، فان الحكم في السعودية وبحكم تعلقه بالشرعية «الدينية السياسية» وارتباطه بالدعوة الوهابية، قد بذل جهودا كبيرة لدعم هذا المذهب ونشره داخل الجزيرة وخارجها. وقد خصص لهذا الغرض ميزانية ضخمة تصرف على طباعة الكتب الخاصة بالعقيدة الحنبلية «بصيغتها الوهابية». منذ الملك عبد العزيز، وكتب السلف تطبع وتنشر وتوزع مجانا، فهذه مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، والدرر السنية، ومجموعة فتاوى ابن تيمية وكتب ابن القيم وكتب الفقه والتفسير والحديث. وهذا النشر والطباعة لتراث الحنابلة وتوزيعه مجانا، ولم يقتصر فيه على السعودية نشرا وتوزيعا. وانما تمت الاستفادة من أغلب دور النشر في مصر وبيروت ودمشق وبغداد والهند. وبذلك اتسعت رقعة التوزيع لتحيط بالسوق العربية والاسلامية للكتاب.

وبما أن الكتاب السلفي الوهابي لا يشكل أية مشكلة بالنسبة لجهات المراقبة على الكتاب الاسلامي في الوطن العربي بالخصوص، فقد أغرقت الأسواق بهذا الكم الهائل من هذه الكتب. والتي أصبح من المتعذر عدم وجود بعضها ضمن مكتبات أبناء الصحوة الاسلامية. كما أن المراكز الثقافية التابعة للحكومة السعودية والمنتشرة في جميع الدول الاسلامية، تقوم بدور فعال في هذا المجال، خصوصا تزويد الطلبة بفتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية. علاوة على المراكز الاسلامية التي دأبت السعودية على افتتاحها في العواصم الدولية، وتزويدها بالكتب السلفية والخطباء والعلماء الوهابيين.

واذا أضفنا الى ذلك ظهور تيارات حركية سلفية داخل العالم الاسلامي، تابعة للمؤسسة الدينية السعودية. تكون الصورة قد اكتملت حول حجم ظاهرة الدعوة السلفية التي واكب ظهورها وانتصارها وسيطرتها على الحجاز والمدينتين المقدستين بروز وتشكل الصحوة الاسلامية العالمية.

بعد ذلك أخذت السلفية اتجاهات مختلفة، حيث باتت تركز على التربية والاصلاح الاجتماعي، خاصة في المغرب العربي، متأثرة بدعوة الشيخ محمد عبده الذي عرّف هو نفسه بحركته التجديدية فقال: «ارتفع صوتي بالدعوة الى أمرين عظيمين: تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة.»

هذه الدعوة الى الاصلاح السياسي والاجتماعي، كانت الاستجابة لها في المغرب العربي قوية. واتجهت السلفية في المغرب نحو الاندماج في الحركة الوطنية وتبني أهدافها التحديثية، وانتهت بالذوبان فيها، خصوصا عندما جند المستعمرون بعض الجماعات الدينية والقوى المختلفة المتعاملة معهم، ضد الوطنية والسلفية. بل يمكن القول ان الحركة الوطنية التحررية انما خرجت من جوف السلفية، تماما مثلما أن السلفية انتشرت في جسم المجتمع المغربي وتغلبت على المذاهب الأخرى وخاصة الصوفية، خصمها الديني، باندماجها في الحركة الوطنية، ورفعها راية الجهاد ضد المستعمر وأعوانه وعملائه.كل ذلك جعل مفهوم السلفي يتوسع ليشمل في آن واحد: محاربة الاستعمار، ومحاربة البدع والتقاليد الاجتماعية الشعبية، والدعوة الى التجديد والتحديث في كل مجال في الفكر والسياسة والاجتماع... الخ.

تعتبر الحركات السلفية ـ في عالم اليوم ـ من أهم الحركات الاسلامية الاصلاحية. ولهذه الحركات صوتها الجهوري الداعي الى تحرير الدين من شوائب العرف وبدع الخلَف.

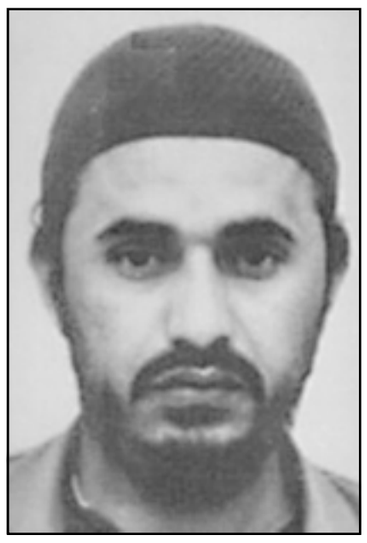

ابو مصعب الزرقاوي

وقد تمظهرت الحركة السلفية المعاصرة بمظاهر شتى خلال القرن العشرين، من ليبرالية، الى عقلانية، الى جهادية. لكن ما تبلور في النهاية تحت مسمى السلفية هو المدرسة النجدية ذات الجذور الحنبلية. وهي التي نركز عليها بالتحليل هنا نظرا لأن صوتها تجاوز حدود مواطنها الأصلية كثيرا، وأثرها امتد الى كل الآفاق، فغدتْ ظاهرة اسلامية عالمية.

لقد ظلت الحركة السلفية حتى وقت قريب تمثل مخزونا احتياطيا ورصيدا استراتيجيا للحركات الاسلامية السياسية والجهادية، دون أن تتحمل بنفسها عبئا في الجهاد السياسي يتناسب مع حجمها وأثرها العلمي والاجتماعي. فكان أغلب السياسيين والحركيين الاسلاميين يتخذون من علماء السلفية ومنشوراتها مرجعا في كثير من رؤاهم التأصيلية، ويستمدون من الحركة السلفية جانبا مهما من مددهم البشري، دون أن يعولوا كثيرا على الحركة نفسها في الجهاد السياسي، نظرا للموقف المتوجس الذي عبر عنه علماء السلفية وقادتها تجاه العمل السياسي، بسبب هاجس الخوف من الفتنة. لكن يبدو أن الحركة السلفية تمر اليوم بمرحلة مخاض بدأت تغير هذه المعادلة، وتخرج بالفكر السلفي من الطوق الذي وضع فيه نفسه.

لكن المخاض الفكري والسياسي الذي تعيشه الحركة السلفية الآن، جعل المساوئ المنهجية تضمحل تدريجيا، باستثناء جيوب معزولة هنا وهناك. وأخذ الفكر السلفي يقترب من هموم الأمة، والتحرر من أسر التاريخ، والخروج من عباءة بعض الأنظمة، التي طالما ركبت الموجة السلفية لتحقيق مآربها. ويلاحظ أن السلفيين بدأوا يتخففون من الجدل التاريخي والكلامي، مع بدء الجهاد في أفغانستان، وأخذوا يركزون على شؤون العصر، وتحديات الحياة المعاشة، وتعطشهم الى الاستفادة من ثقافة العصر في مجال الفكر السياسي والتنظيمي.

وتعود أسباب هذه التطورات على الساحة السلفية الى عدة عوامل منها:

أولا: تضاعف أعداد المتطوعين للجهاد في أفغانستان، خاصة من علماء الدين الذين أخذوا على عاتقهم التأصيل للجهاد، وفق المذهب السلفي، من أن القتال في أفغانستان هو جهاد دفع، لا يحتاج الى تطبيق الاشتراطات الصعبة التي يتطلبها أنواع الجهاد الأخرى.

ثانيا: تمرد بعض العلماء والدعاة مطلع التسعينيات من القرن الماضي على السلطات السياسية، فحرروا الخطاب السلفي لأول مرة من عباءة الأنظمة التي تجعل الشريعة خادمة للسلطة ـ لا العكس المفترض ـ وهذا دفع الشباب السلفي الى دراسة الواقع واستيعاب مقتضيات الدين في العصر الحاضر.

ثالثا: امساك بعض الوجوه السلفية بزمام المبادرة السياسية داخل بعض الدول المسلمة، وتعاونهم مع الجماعات الاسلامية الأخرى ومع عامة الشعب بحكمة واستيعاب. وقد برزت هذه الظاهرة أوضح ما تكون في تجربة «الجبهة الاسلامية للانقاذ» بالجزائر مطلع التسعينيات من القرن الماضي.

رابعا: ما قامت به الجماعات السلفية المغتربة في أوربا وأمريكا من دور تنويري أسهم في تطوير خطاب سلفي جديد، يتسم بالوعي والنضج. وربما كان للثقافة السلفية السائدة في الغرب أثر ايجابي هنا، حيث لا تقاس قيمة المبدأ بصحته النظرية، بل بصلاحيته العملية. مما أسهم في أن يدرك السلفيون ـ وان كان في وقت متأخر من القرن الماضي ـ أن أمامهم وأمام الاسلام تحديات أكبر من منازلة الشيعة والمرجئة والأشاعرة والمتصوفة. فقد وعوا أن ما تحتاجه الصحوة الاسلامية اليوم، هو أمة تعيش تحديات عصرها، لا تستعبدها مقولات الماضي ومصطلحاته، وحروبه التي أضاعت على القوى الاسلامية ـ فيما مضى ـ الكثير من الوقت والجهد.

هذه الاستراتيجية الجديدة للحركات السلفية، أعطتها قوة تنظيمية وحركية، وباتت تتمتع بمرونة غير مسبوقة. ظهرت أكبر تجلياتها في استيعاب القاعدة عام 1999 لأبو مصعب الزرقاوي، رغم عدم اتفاقه التام مع منهج بن لادن، بسبب الفهم المتعدد لبعض جوانب العقيدة فيما يتعلق بالولاء والبراءة، وما